

الملك النجار

الملك النجار

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ٧٨٨٧/٢٠١٣

تدمك: ٨ ٢٧٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

٩

١٥

٢٣

مقدمة

الفصل الأول

الفصل الثاني

إلمامة

مقدمة

بقلم كامل كيلاني

أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ:

تَرَجَمْتُ لَكَ هَذِهِ الْقِصَّةَ التَّمَثِيلِيَّةَ الْبَارِعَةَ مُنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا — أَوْ تَرِيدُ — أَيَّ قَبْلَ وَلادَتِكَ بِعَامَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ، ثُمَّ شَغَلْتَنِي عَوَادي الزَّمَنِ وَمَشَاغِلُهُ الْكَثِيرَةُ، عَنْ تَقْدِيمِهَا إِلَيْكَ فِي حُلَّةٍ قَشِيبَةٍ، تَهَشُّ بِهَا نَفْسُكَ، وَيَطْرَبُ لَهَا فُؤَادُكَ.

وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي — مُنْذُ أَسَابِيحَ — أَنْ أَزُودَكَ بِقِصَّةٍ تَمَثِيلِيَّةٍ، تَشْتَرِكُ فِي تَمَثِيلِهَا مَعَ أَخْدَانِكَ وَلِدَاتِكَ — مِنَ الطُّلَابِ وَالطَّالِبَاتِ — فَذَكَرْتَنِي بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، وَمَا كُنْتُ لَهَا نَاسِيًا. وَهَآنَذَا أَقْدَمُهَا إِلَيْكَ، مُفْتَحًا بِهَا الْمَجْمُوعَةَ الْجَدِيدَةَ، تَحْقِيقًا لِرَغْبَتِكَ، وَتَوْخِيًا لِفَائِدَتِكَ.

وَسَتَرَى — فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ التَّمَثِيلِيَّةِ الْجَمِيلَةِ — مِنَ الْعَبَرِ وَالْعِظَاتِ السَّامِيَةِ مَا يَحْفِزُ هِمَّتَكَ إِلَى دَرْكِ الْعِظَائِمِ، وَيُلْهَبُ فِي نَفْسِكَ حُبَّ الْوَطَنِ الَّذِي يَنْوُطُ بِكَ أَكْبَرَ الْأَمَالِ، وَيَزْتَقِبُ مِنْكَ أَجَلَ الْأَعْمَالِ.

الفصل الأول

(منظر «بطرس» الأكبر: منشئ «روسيا» الحديثة، وهو في مصنع «هولندا»، بملابس النجارين.)

بطرس: لَقَدْ مَرَّ الْعَامُ، وَوَجَبَ عَلَيَّ الْآنَ مُغَادَرَةُ هَذَا الْمَكَانِ! شَدَّ مَا أَصْبَحْتُ مُؤْتِنِسًا بِهِذِهِ الرَّفَقَةِ الْمُخْلِصَةِ، كَلَفًا بِهِؤْلَاءِ الْقَوْمِ السُّدَجِّ، لَا سَيِّمَا صَدِيقِي «ميكائيل»، ذَلِكَ الرَّفِيقُ الْأَمِينُ، الَّذِي لَا أَطِيقُ فِرَاقَهُ!

ميكائيل (داخلاً): مَرْحَبًا بِكَ يَا بُطْرُسُ! آه! أَلَا تَزَالُ هُنَا؟ مَاذَا تَقُولُ يَا بطرس؟ خَبِّرْنِي: أَيُّ حَدِيثٍ كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ الْآنَ؟ فَقَدْ سَمِعْتُكَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَقْتَرِبُ مِنْكَ! فَأَيُّ مُهِمٍّ يَشْغَلُكَ؟

بطرس: خَيْرًا يَا زَمِيلِي! فَلَيْسَ يَشْغَلُنِي إِلَّا السَّفَرُ! أَلَا تَعْلَمُ — يَا أَخِي — أَنَّني عَلَى أَهْبَةِ الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ؟

ميكائيل: آه! أَجَادُ أَنْتَ فِيمَا تُحَدِّثُنِي بِهِ؟! أَيُّ خَيْرٍ هَذَا؟ أَتَتْرُكُ «سرادم»؟ أَصَحِيحُ أَنْكَ تَعْتَزُّمْ فِرَاقَنَا؟ مَاذَا تَقُولُ؟ إِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ يَا بُطْرُسُ؟

بطرس: إِلَى وَطَنِي، بَلْ وَطَنِنَا مَعًا — إِنْ شِئْتَ — فَأَنْتَ تَعْرِفُ — فِيمَا أَعْلَمُ — أَنَّني قَدِمْتُ مِنْ «رُوسِيَا»، كَمَا قَدِمْتَ أَنْتَ، لِأَتَعْلَمَ صِنَاعَةَ السُّفْنِ، وَالْآنَ — يَا صَاحِبِي — قَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ بَعْدَ أَنْ اغْتَرَبْتُ عَنْهُ سَنَةً كَامِلَةً!

ميكائيل: أَلَيْسَ لَكَ بَدٌّ مِنَ الرَّحِيلِ؟ أَلَا سَبِيلَ إِلَى عُدُولِكَ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْمُزْعِجَةِ؟ شَدَّ مَا يَحْزُنُ مُعْلَمَنَا أَنْ تُفَارِقَنَا وَتَتْرُكَ جَمَاعَتَنَا! فَهُوَ كَثِيرًا مَا أَثْنَى عَلَيْكَ، وَنَوَّهَ بِحُسْنِ خِلَالِكَ، وَحَمِدَ لَكَ نَشَاطَكَ وَمُثَابَرَتَكَ عَلَى عَمَلِكَ، وَأَثَرَكَ عَلَى جَمِيعِ الرِّفَاقِ بِلُطْفِهِ وَمَوَدَّتِهِ.

وَقَدْ أَوْصَانَا — جَمِيعًا — أَنْ نَتَّخِذَ مِنْكَ نَمُودَجًا صَالِحًا، وَمِثَالًا طَيِّبًا لِلْعَامِلِ الْمُجِدِّ الْمُخْلِصِ فِي عَمَلِهِ.

بطرس: ما أَسْعَدَنِي بهذا الثَّنَاءِ! وَمَا أَشَدَّ فَرَحِي إِذْ أَتَرْتُكَ بَعْدِي أَحْسَنَ ذِكْرِي وَأَطْيَبَ أَحْدُوثِي بَيْنَكُمْ! وَلَكِنْ خَبَرْنِي فِي صِرَاحَةٍ وَصِدْقٍ: أَلَيْسَ يَسُرُّكُمْ — مَعْشَرَ الرِّفَاقِ — أَنْ يَرْحَلَ عَنْكُمْ مُنَافِسٌ مِثْلِي، حَتَّى لَا يَحْطَى بِالْفَوْقِ عَلَيْكُمْ، فَيَسْتَأْثِرَ بِالثَّنَاءِ دُونَكُمْ؟

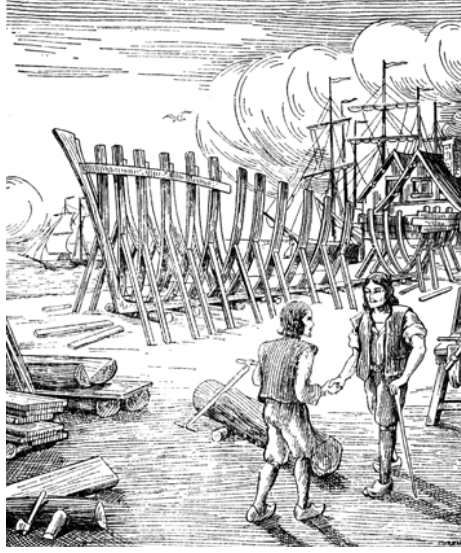
ميكائيل: كَلَّا يَا بَطْرُس، فَإِنَّا — جَمِيعًا — شَدِيدُو الإِعْجَابِ بِكَ لِدِمَائَةِ أَخْلَاقِكَ، وَبِرَاعَةِ حَدِيثِكَ، وَجَمِيلِ شَمَائِلِكَ. وَلَسْتُ أَكْتُمُكَ أَنَّ حُزْنِي لِفِرَاقِكَ حُزْنٌ طَوِيلٌ، وَمَا أَشَدَّ وَحْشَتِي حِينَ أَتْلَفْتُ — يَمَنَةً وَيَسْرَةً — فَلَا أَرَاكَ بَيْنَنَا ... لَقَدْ مَرَّتْ بِنَا هَذِهِ الْأَيَّامُ كَأَنَّهَا — لِقَصْرِهَا — سَاعَاتٌ، حَتَّى حَسِبْتُهَا حُلُمًا جَمِيلًا، تَرَكَ فِي نَفُوسِنَا أَطْيَبَ الْأَثَرِ، وَأَحْمَدَ الذِّكْرِيَّاتِ! وَلَسْتُ أَكْتُمُكَ — يَا صَاحِبِي — أَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ لَا أَطِيقُ فِرَاقَكَ، وَلَا أَذْهَبُ كَيْفَ أَحْمِلُ هَذَا النَّبَأَ الْأَلِيمَ؟

بطرس: أَنْتَ إِنَّمَا تُعَبِّرُ عَنْ شُعُورِي أَصْدَقَ تَعْبِيرٍ، فَلَسْتُ أَذْهَبُ كَيْفَ أَفَارِقُكَ يَا عَزِيزِي؟ وَلَكِنْ لِمَاذَا نَفْتَرِقُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ؟ خَبَرْنِي: لِمَاذَا نَفْتَرِقُ؟ مَاذَا يَدْعُوكَ إِلَى الْبَقَاءِ فِي هَذَا الْبَلَدِ؟ وَمَا بِأَلْكَ لَا تَعُودُ مَعِيَ إِلَى الْوَطَنِ؟ أَلَيْسَ فِي وَطَنِكَ أَحَدٌ يَسُرُّكَ أَنْ تَرَاهُ؟ أَلَا تَشْعُرُ بِحَنِينٍ إِلَى بَلَدِكَ الَّذِي نَشَأْتَ فِيهِ، وَنَعِمْتَ بِجَمَالِهِ، وَامْتَلَأْتَ نَفْسَكَ بِحُبِّهِ؟

ميكائيل: حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ يَتَحَقَّقَ هَذَا الْأَمَلُ الْمُنْشُودُ، فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْحَنِينِ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ الْكَرِيمِ، وَمَا أَسْعَدَنِي بِلِقَاءِ أُمِّي الْعَجُوزِ الْمُسْكِينَةِ، الَّتِي تَذُوبُ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِي، وَتَتَمَنَّى لِقِيَائِي بِفَارِغِ الصَّبْرِ! وَمَا زِلْتُ أَذْكُرُ حُزْنَ خِطْبِي عَلَى فِرَاقِي، وَالْمَهَا فِي غُرْبَتِي الطَّوِيلَةِ ... وَلَكِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لَا سَبِيلَ إِلَى مُدَافَعَتِهِ، وَلَا بَدٌّ مِنَ الْإِذْعَانِ لَهُ، وَالرَّضَى بِهِ، وَمَا زِلْتُ أَكْرُرُ عَلَيْكَ السُّؤَالَ: لِمَاذَا أَرْمَعْتَ فِرَاقَنَا أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ؟

بطرس: لِأَنَّ عَلَيَّ وَاجِبَاتٍ وَفُرُوضًا تَحْتِمُ عَلَيَّ الرُّجُوعَ إِلَى الْوَطَنِ الْآنَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّهَاقُوتِ فِي أَدَانِهَا، وَمِثْلُكَ مَنْ يَقْدَرُ نِدَاءَ الْوَطَنِ، وَيَرَى أَنَّ الْوَاجِبَ الْوَطَنِيَّ هُوَ الْمُهِيمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ حَقِيقٍ بِوَصْفِ الرُّجُولَةِ!

ميكائيل: نَعَمْ! هَكَذَا يَقُولُ الْمُصْلِحُونَ!



بطرس الأكبر وهو بملابس النجارين في ساحة بناء السفن على الساحل، وإلى جانبه صديقه ميكائيل ستنمتمز النجار، وهما يتحدثان.

بطرس: بل هكذا يقول كلُّ رجلٍ شجاع القلب، طاهر الضمير، يزنُ الأمورَ بميزانِ المنطق والعقل، وما أراك إلا كذلك، ويلوحُ لي أنك غيرُ مُضطرٍّ إلى الرجوعِ لوطنك، فليس عليك — فيما أظنُّ — واجبٌ حتمٌ أدأؤه الآن. فوداعاً أيُّها الصديق!

ميكائيل: تمهّل يا بطرس ... أناة يا صاحبي! ... فإنّي أريدُ أن أتحدّثَ إليك قبلَ أن نفرّق.

بطرس: حدّثني بما تشاء.

ميكائيل: لست أكتُمك أنّ نفسي تُحدّثني بالإقدام على مُجاهرتك بسرّي، والإفشاء إليك بدخلة نفسي.

بطرس: لَا تُحَدِّثْنِي بِسِرِّكَ إِذَا كَانَ فِي هَذَا السِّرِّ مَا يَشِينُكَ!
ميكائيل: كَلَّا، كَلَّا يَا بَطْرُسُ، لَيْسَ فِي حَدِيثِي مَا يَشِينُ، وَلَكِنْ فِيهِ مَا يُظْهِرُكَ عَلَى سِرِّ خَوْفِي مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِي؛ لَقَدْ وُلِدْتُ فِي «موسكو» ...!
بطرس: حَسَنًا، لَيْسَ فِي هَذَا مَا يَشِينُ، وَلَا إِنَّمْ عَلَيْكَ أَنْ وُلِدْتَ فِي «موسكو» ... وَهَبْ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا تَتَحَرَّجُ مِنْهُ، فَلَيْسَ هَذَا خَطَاكَ يَا صَاحِبِي!
ميكائيل: كَلَّا! لَيْسَ هَذَا مَا أَعْنِيهِ يَا بَطْرُس، فَأَعْرِزْنِي سَمْعَكَ لَتَتَعَرَّفَ جَلِيلَةَ الْخَبَرِ؛ لَقَدْ حَلَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْجُنْدِ بِالْقُرْبِ مِنْ كُوخِ أُمِّي، وَحَانَتْ مِنْ ضَابِطِ الْفِرْقَةِ التِّفَاتَةُ — لِسُوءِ حَظِّي — فَرَأَنِي قَرِيبًا مِنْهُ، وَمَا إِنْ أَبْصَرَنِي حَتَّى أَمَرَنِي بِالِانْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْجُنْدِيَّةِ، وَفَقًّا لِإِرَادَةِ الْقَيْصَرِ، وَتَحْقِيقًا لِرَغْبَتِهِ ... وَلَسْتُ أُطِيلُ عَلَيْكَ، فَمَا أَسْرَعَ مَا أَرْغَمَنِي ذَلِكَ الضَّابِطُ عَلَى تَلْبِيَةِ أَمْرِهِ؛ فَقَدْ وَضَعَ عَلَى كَتِفِي بُنْدَقِيَّةً، وَأَمَرَنِي بِالسَّيْرِ مَعَهُمْ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ ثَمَانِينَ.

بطرس: وَمَوْجَزُ الْقَوْلِ أَنَّهُ قَيَّدَ اسْمَكَ فِي دَفْتَرِ الْجُنْدِيَّةِ ...
ميكائيل: أَغْلَبُ الظَّنُّ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ... وَلَكِنِّي لَمْ أَفْطُنْ — حِينئِذٍ — لِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ.

بطرس: مَا أَعْجَبَ مَا تَقُولُ! لَقَدْ حَدَّثْتَنِي أَنَّ الضَّابِطَ قَدْ سَجَّلَ اسْمَكَ فِي عِدَادِ جُنُودِ الْقَيْصَرِ، فَكَيْفَ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَجِيءَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ؟
ميكائيل: لَقَدْ أَدْرَكْتَ الْآنَ حَقِيقَةَ أَمْرِي، وَعَرَفْتَ سِرِّي! عَلَى أَنَّنِي أُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ قَيْصَرَنَا قَدْ ارْتَكَبَ خَطَأً عَظِيمًا؛ إِذْ أَرْغَمَنِي عَلَى أَنْ أَكُونَ مِنْ جُنُودِهِ، وَلَسْتُ أَكْذِبُكَ إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّنِي لَسْتُ بِالرَّجُلِ الَّذِي يَنْجَحُ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ، وَلَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أُوْطِنَ نَفْسِي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ؛ فَلَمْ أَفْلَحْ فِيهِ، وَرَأَيْتُهُ لَا يَلَانِمُنِي بِحَالٍ مَا، وَقَدْ كَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا الْخَطَا أَنَّنِي اضْطُرَرْتُ إِلَى مُفَارَقَةِ أُمِّي الْمُسْكِينَةِ، وَخِطْبِي «كَثْرَيْنَ» الْجَمِيلَةِ، وَوَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى احْتِمَالِ الْأَلَامِ الشَّدِيدَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الضَّرَبَاتِ الْمُؤَلِمَةِ، وَسَمَاعِ الْكَلِمَاتِ الْمُغْضِبَةِ ... حَتَّى جَاءَ شَهْرُ «دَيْسِمْبَر» ... وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيهِ الْقَرَّةِ دُعِيتُ لِلْجِرَاسَةِ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ صَبَاحًا، وَكَانَتِ التَّلُوجُ تَغْطِي الْأَرْضَ بِغَطَاءٍ غَلِيظٍ؛ فَاضْطُرَرْتُ إِلَى الْمَشْيِ، حَتَّى لَا يَجْمَدَ الدَّمُ فِي عُرُوقِي ... فَهَلْ تُصَدِّقُ أَنَّي وَجَدْتَنِي — بَعْدَ سَاعَاتٍ — قَدْ أَصْبَحْتُ عَلَى مَسَافَةِ خَمْسَةِ فَرَاسَخَ، بَعِيدًا عَنْ مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ؟

بطرس: أَتَعْنِي أَنَّكَ قَدْ فَرَرْتَ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟

ميكائيل: أَيْسَمَّى ذَلِكَ فِرَارًا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟ شَدَّ مَا يُزَعِّجُنِي أَنْ أَفَكِّرَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ! إِنَّهَا تَسْتَثِيرُ مَخَافِي، وَتُزَعِّجُنِي إِزْجَاجًا لَا قِبَلَ لِي بِاحْتِمَالِهِ.

بطرس: أَلَا نَعْلَمُ — أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْكَرِيمُ — أَنَّكَ كُنْتَ تُقْتَلُ رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ إِذَا اهْتَدَى أَحَدٌ إِلَى مَقَرِّكَ؟

ميكائيل: لَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسِي بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ، وَعَاوَدْتَنِي مَرَّاتٍ عَدَّةً؛ وَلَكِنِّي تَنَاسَيْتُهَا عَامِدًا، وَرَأَيْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ أَنْ أُوَصِلَ سَيْرِي مُبْتَعِدًا عَنْ مَقَرِّ الْجَيْشِ، وَكَمَّةً ظَلَلْتُ أَتَابِعُ السَّيْرَ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى «سِرْدَام» ... وَهَآنَذَا — كَمَا تَرَانِي — آمِنًا مُطْمَئِنًّا فِي هَذَا الْبَلَدِ ... وَالْآنَ — وَقَدْ أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِدَخْلَتِي — يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّني أَسْتَطِيعُ الْوُثُوقَ بِكَ، وَالتَّعْوِيلَ عَلَيْكَ، وَمَنْ يَدْرِي؟ فَلَعَلَّكَ أَنْتَ نَفْسَكَ وَاقِعٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَازِقِ الَّذِي وَقَعْتُ أَنَا فِيهِ ...

بطرس: أَتَعْنِينِي؟ ... أَتَطْنُنِي هَارِبًا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟ ... يَا لِلْبَلَاهَةِ وَالسُّخْفِ!

ميكائيل: لَا عَلَيْكَ يَا أَخِي! وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مُتَجَاوِزًا عَنْ هَفَوَاتِي، فَمَا قَصَدْتُ إِلَى إِسَاءَتِكَ قَطُّ ... عَلَى أَنَّني أَشْعُرُ دَائِمًا أَنَّ أَسْرَارًا غَرِيبَةً تَكْتَنِفُكَ يَا بَطْرُسُ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّكَ مُحْتَفِظٌ بِسِرِّي — بَلَا شَكٍّ — جِئِنِ نَعُودُ إِلَى بَلَدِكَ، فَأَنْتَ أَعْرِفُ بِخَطَرِ مَا أَفْضَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ، وَلَوْ عَلِمَ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَلِكِ أَوْ نَوَابِهِ شَيْئًا مِنْ أَمْرِي، لَمَا تَرَدَّدَ فِي إِهْلَاكِي، وَالْقَضَاءِ عَلَيَّ.

بطرس: لَنْ يَعْرِفَ الْقَيْصَرُ — مِنْ قِصَّتِكَ — أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُهُ الْآنَ، وَمَا أَظُنُّكَ قَادِرًا عَلَى كِتْمَانِ سِرِّكَ طَوِيلًا؛ فَإِنَّ لَهُ — فِيمَا أَعْلَمُ — أُسْلُوبًا عَجِيبًا فِي تَعْرِفِ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ مَهْمَا تُحَجِّبُ عَنْهُ ... وَمَا أَظُنُّ شَيْئًا — مَهْمَا يَدُقُّ — يَخْفَى عَلَيْهِ ... يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ شَدِيدٍ، قَاسِي الْقَلْبِ! وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْقَانُونِ الْجَائِرِ الَّذِي أَصْدَرَهُ فَحَتَمَ عَلَى كُلِّ هَارِبٍ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ — مِنْ أَمْثَالِكَ — أَنْ يُقْتَلَ رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْنِيَ ذَنْبًا أَوْ يَقْتَرِفَ إِنْثِمًا، فَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرَجٍ — فِيمَا أَرَى — إِذَا كُنْتَ بِطَبِيعَتِكَ لَا تَصْلُحُ لِلْجُنْدِيَّةِ، وَلَا تُوَهِّلُكَ مَزَايَاكَ لِلانْدِمَاجِ فِي سَلِكِهَا ...

ميكائيل: حذارِ أَنْ تَذُمَّ الْقَيْصَرَ أَمَامِي ... فَإِنَّ لَهُ فِي قَلْبِي مَكَانَةَ الْإِكْبَارِ وَالْإِجْلَالِ،
وَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَى قَلْبِي مِنَ الْفَتْكِ بِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَغْتِيَابِهِ أَوْ نَقْدِهِ، وَلَكِنَّ عَجَزْتُ عَنْ
خِدْمَتِهِ جُنْدِيًّا مُحَارِبًا، لَقَدْ تَمَنَّيْتُ لَوْ أُتِيحَ لِي السَّبِيلُ إِلَى خِدْمَتِهِ صَانِعًا أَوْ عَامِلًا ... وَإِنِّي
لَأَنْصُرُهُ وَأُخْلِصُ لَهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي، وَلَا أَدَّخِرُ فِي نَصْرَتِهِ أَيَّ جَهْدٍ مِنْ جُهودي ... إِنَّ قُوَايَ
وَرُوحِي وَمَوَاهِبِي كُلَّهَا طَوْعَ أَمْرِهِ، وَرَهْنُ إِشَارَتِهِ؛ فَهُوَ قِبْلَةُ الْوَطَنِ وَحَامِيهِ، وَرَافِعُ لَوَائِهِ
وَرَمَزُ أَمَانِيهِ ... لَا تَغْضَبْ أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْقَدِيمُ! فَلَسْتُ قَادِرًا عَلَى كِتْمَانِ هَذَا الشُّعُورِ النَّبِيلِ،
وَلَقَدْ جَاهَرْتُكَ بِدِخْلَتِي، وَأَفْضَيْتُ إِلَيْكَ — مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعًا — بَسْرِي الدَّفِينِ الَّذِي
لَمْ أُطْلِعْ عَلَيْهِ كَائِنًا كَانَ.

بطرس: أَخْلِدْ إِلَيَّ بِكُلِّ ثِقَتِكَ؛ فَلَنْ أَخُونَكَ قَطُّ ... وَمَنْ يَدْرِي؟ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ
— فَلَعَلَّ الْمُسْتَقْبَلَ يُحَقِّقُ لَكَ صِدْقَ مَا أَقُولُ، وَرَبِمَا اسْتَطَعْتُ — إِذَا أُتِيحَتْ لِي فُرْصَةٌ فِي
قَابِلِ أَيَّامِي — أَنْ أُثْبِتَ لَكَ صِدْقَ وَلَائِي وَإِخْلَاصِي ...!

الفصل الثاني

(منظر كوخ في مدينة «موسكو» فيه «ميكائيل» وأمه.)

أم ميكائيل: ماذا يا ميكائيل؟ أليس لك مَنَدُوحَةٌ عن مغادرتنا — مرةً أخرى — بهذه السُّرعة؟

ميكائيل: لا سبيلَ إلى البقاءِ بِجوارِكِ يا أُمِّي ... لقد لبثتُ زمنًا طويلاً في هذا البلدِ عَلَى ما يَكْتَنِفُنِي من أَهْوَائِ وَمَخَاطِرٍ ... وإِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ حَيَاتِي مُهَدَّدَةٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ... ولا تَنْسَى أَنَّني — عَلَى فَرَضِ نَجَاتِي من الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بي هُنَا — سَأَخْسِرُ عَمَلِي الَّذِي أَقْتَاتُ مِنْهُ فِي «سردام» إِذَا لم أَسْرِعْ بِالْعُودَةِ من فُورِي ... ومَتَى طُرِدْتُ من الْعَمَلِ، فَقَدْتُ آمَالِي كُلَّهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا أَظُنُّكَ تَجْهَلِينَ أَنَّني قد فَرَرْتُ من الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي لَا أَصْلَحُ لَهَا — بَعْدَ أَنْ اضْطُرَرْتُ إِلَى الْإِنْدِمَاجِ فِي سِلْكِهَا اضْطِرَارًا — وَالآنَ وَقَدْ احْتَرَفْتُ النِّجَارَةَ، وَوَفَّقْتُ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ الْحُرِّ، وَشَعَرْتُ بِنِعْمَةِ الْإِسْتِقْلَالِ، لَا أَرَى أَنَّ سَعَادَتِي تَتِمُّ إِلَّا إِذَا رَافَقْتَنِي — أَنْتِ — وَ«كَتْرِينَ» إِلَى مَحَلِّ عَمَلِي فِي «سردام» حَيْثُ تُدَبِّرَانِ لِي مُرْتَبِي، وَنَعِيشُ عَيْشَةً رَغَدًا هَنِئَةً.

أم ميكائيل: لَيْتَ هَذَا الْأَمَلُ يَتَحَقَّقُ، وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟ إِنَّهُ حُلْمٌ لَا سَبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِهِ، فَقَدْ بَلَغَ بِي الْكِبَرُ كُلُّ مَبْلَغٍ، وَأَقْعَدْتَنِي الشَّيْخُوخَةُ عَنِ السَّيْرِ وَالْحَرَكَةِ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَغَادِرَ وَطَنِي بَعْدَ أَنْ بَلَغْتُ هَذِهِ السَّنَ: أَمَّا مُرْتَبُكَ، فَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَفِي بِنَفَقَاتِ مَحْطُوبَتِكَ «كَتْرِينَ» فِي بِلَادِ الْغُرْبَةِ.



أم ميكائيل تحدثه، وهما في البيت، وقد ظهر على وجهها الألم لفراقه.

ميكائيل: ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ — يَا أُمِّي — وَهَذَا هُوَ مَا يَضْطَرُّنِي إِلَى الْإِسْرَاعِ
بِالْعُودَةِ — مِنْ فَوْرِي — حَتَّى لَا أَفْقِدَ وَظِيفَتِي هُنَاكَ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ، فَإِنِّي أَشْعُرُ
أَنَّ الْخَطَرَ يَكْتَتِبُنِي فِي هَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْنِي أُعَرِّضُ حَيَاتِي لِلْمَوْتِ، إِذَا بَقِيتُ هُنَا بَعْدَ الْيَوْمِ.

(يسمعان قرعًا بالباب.)

ميكائيل: آه! شَدَّ مَا تَدْعُرْنِي كُلَّ حَرَكَةٍ، وَتُخِيفُنِي كُلُّ دَقَّةٍ عَلَى الْبَابِ ... أَنَاةً يَا أُمِّي!
وَتَرَيْتِي فِي فَتْحِ الْبَابِ حَتَّى أَخْتَبِئَ ...

(يدخل «بطرس» الأكبر مسرعًا.)

بطرس: أَخْرُجْ مِنْ مَكْمَنِكَ أَيُّهَا الرَفِيقُ الْقَدِيمُ.
لَا تُخَفِ نَفْسَكَ عَنِّي، فَقَدْ رَأَيْتَكَ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ! أَخْرُجْ أَيُّهَا الصَّدِيقُ، فَمَا أَجْدَرَكَ
أَلَّا تَخْشَانِي!

ميكائيل: مَرْحَبًا بِكَ يَا بَطْرُسُ ... ماذا أَرَى؟ أَتُرَانِي مُتَتَبِّئًا مِمَّا أَرَى؟ ... أَلَسْتُ
حَالِمًا؟ شَدَّ مَا يَبْهَجُنِي، وَيَمْلَأُ نَفْسِي غِبْطَةً وَسُرُورًا أَنْ أَرَكَ ثَانِيَةً يَا بَطْرُسُ ... وَلَكِنْ
خَبَّرَنِي: كَيْفَ جِئْتُ إِلَى «موسكو»، ذَلِكَ الْبَلَدِ الْقَارِيَّ وَلَيْسَ فِيهِ مَصَانِعُ لِبْنَاءِ السَّفِينِ؟ وَأَيُّ
عَمَلٍ تَزاولُهُ فِي هَذَا الْبَلَدِ؟

بطرس: صَدَقْتُ، وَلَكِنْ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَصَانِعَ قَدْ أُنْشِئَتْ فِي مَدِينَةِ «بطرس»؟ لَقَدْ
اعْتَزَمَ الْقَيْصَرُ أَنْ يُنْشِئَ مَدِينَةً «بَطْرُسْبَرْج» هَذِهِ، وَهُوَ جَادٌّ فِي إِنْشَائِهَا وَتَعْمِيرِهَا، أَلَا تَعْلَمُ
ذَلِكَ؟

ميكائيل: يَقُولُونَ إِنَّ الْقَيْصَرَ فِي «موسكو» الْآنَ!
بطرس: نَعَمْ، وَقَدْ مَرَّ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — مِنْ هَذَا الشَّارِعِ الَّذِي تَقْطُنُهُ.
ميكائيل: هَكَذَا سَمِعْتُ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرَهُ ... عَلَى أَنَّ عَجَبِي لَا يَزَالُ شَدِيدًا مِنْ اهْتِدَائِكَ
إِلَى مَسْكَنِي، فَكَيْفَ عَرَفْتَهُ يَا صَاحٍ؟

بطرس: الْأَمْرُ غَايَةٌ فِي الْيُسْرِ، فَقَدْ حَانَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ إِلَى اسْمِ أُمِّكَ الْمَكْتُوبِ عَلَى
الْبَابِ، فَقَرَأْتُهُ عَرَضًا، ثُمَّ خَطَرَ بِيَالِي بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ ...
ميكائيل: الْقَصْرُ! ... أَيُّ قَصْرٍ تَعْنِي؟

بطرس: نَعَمْ! نَعَمْ! فَإِنِّي أُسَمِّي الْمَكَانَ الَّذِي أَحُلُّ فِيهِ قَصْرًا، وَهِيَ عَادَةٌ أَلْفَتْهَا،
وَاعْتَدْتُهَا دَائِمًا!

ميكائيل: مَا أَغْرَبَ أَطْوَارَكَ! وَأَعْجَبَ عَادَاتِكَ يَا بَطْرُسُ!
بطرس: لِنَعُدْ إِلَى حَدِيثِنَا الْأَوَّلِ ... قُلْتُ لَكَ: إِنِّي — بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ — خَطَرَ
بِيَالِي أَنْ السَّيِّدَةَ «ستنمتز» قَدْ تَكُونُ أُمُّ رَفِيقِي الْقَدِيمِ «ميكائيل ستنمتز» أَوْ عَمَّتُهُ، أَوْ
إِحْدَى قَرِيبَاتِهِ ... وَلَمْ تَكُنْ تَقْرَأُ فِي نَفْسِي هَذِهِ الْفِكْرَةَ، حَتَّى خَرَجْتُ مُسْتَخْفِيًا فِي هَذَا الزَّيِّ.
ميكائيل: هَا! هَا! هَا! تَسْتَخْفِي فِي زَيِّ الْوُجَاهِ وَالسَّادَةِ! خَبَّرَنِي: كَيْفَ ظَفَرْتَ بِهَذِهِ
الْحُلَلِ الْبَدِيعَةِ؟



بطرس الأكبر بملابسه الفخمة، وهو في بيت ميكائيل يحدثه، وإلى جانبهما أم ميكائيل، مصغية إلى حوارهما.

بطرس (محتدًا): لا تقاطعني يا أخي!
ميكائيل: ما أغرب هذه اللهجة الحادة التي تخاطب بها رفيقك القديم! ولكن لا إثم عليك ولا تنريب، فإنني على ثقة من حسن نيّتك يا بطرس، وإنني لأشكر لك — على كل حال — عنايتك بي، وحزرك على تعرّف أخباري.
بطرس: آه يا ميكائيل! ما كان أسعدنا في تلك الأيام البهيجة التي قضيناها في «سردام»، إذ كنا نشقّ الخشب معًا، لنبنّي بها السفن في أيام الصيف الطويلة، حيث نقضي أجمل الساعات في ساحة بناء السفن الفسيحة.
ميكائيل: ما أيسر تحقيق هذا الأمل — يا بطرس — إذا رُضيت أن تعود معي إلى «سردام».

ماذا عليك إذا رافقتني إلى هناك؟

بطرس: كيف جَرُوتَ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى وَطَنِكَ يَا ميكائيل؟

ميكائيل: لَمْ أَطِقْ صَبْرًا عَلَى بَعَادِ أُمِّي الْعُجُوزِ الْوَاحِدَةِ إِلَى لُقْيَايَ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَخْطُوبَتِي «كَثْرِينَ» تَنْتَظِرُ عَوْدَتِي بِفَارِغِ الصَّبْرِ ... آه! لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ فَقِيرًا مُعْدِمًا ... وَلَكِنْ صَبْرًا، فَإِنَّ الْحَظَّ — فِيمَا آمَلُ — مُبْتَسِمٌ لِي، فِي نِهَايَةِ الْعَامِ الْقَابِلِ ... آه! لَيْتَهَا تَتَحَقَّقَ الْأَمَالُ، وَيجْتَمِعَ شَمْلُنَا فِي «سَرْدَام».

بطرس: إِنَّ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْصِلَ الْآنَ عَلَى مَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ إِذَا أَفْضَيْتُ إِلَى الْحُكُومَةِ بِالسَّرِّ، وَأَرْشَدْتُهَا إِلَى صَدِيقِي الْهَارِبِ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ!

ميكائيل: بَرَبِّكَ لَا تُزْعِجْنِي بِمَثَلِ هَذَا الْمَزَاحِ الْمَفْرَعِ، إِنَّنِي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ حُسْنِ نَيْتِكَ، فَلَسْتُ تَقْصِدُ إِلَى شَيْءٍ — فِيمَا أَعْلَمُ — غَيْرِ الدُّعَايَةِ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — يُزْعِجُ أُمِّي وَيُخِيفُهَا ... فَلْنَدَعْ الْمَزَاحَ جَانِبًا، وَلْنَأْخُذْ فِي حَدِيثِنَا الْأَوَّلِ ... لَقَدْ سَعِدْتُ بَلْقِيَاكَ أَيُّهَا الْأَخِ الْعَزِيزُ، وَلَكِنِّي مُضْطَرٌّ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — إِلَى مُغَادَرَةِ «موسكو»، فَهَلْ مِنْ رِسَالَةٍ تُرِيدُ أَنْ تُحْمَلِنِيهَا إِلَى أَحَدِ رِفَاقِكَ الْقُدَمَاءِ؟

(يسمع الباب وهو يُقرع بشدة، فيوصوص ميكائيل من خلال النافذة.)

ميكائيل: آه! واه! يَا لِلْهَوْلِ! جُنُودٌ يُحِيطُونَ بِالْبَيْتِ، وَضَابِطٌ يَتَقَدَّمُهُمْ! أَيُّ مَعْنَى لِهَذَا؟ وَأَيُّ كَارِثَةٍ حَلَّتْ بِنَا يَا بَطْرُس؟ مَا أَجْدَرَنِي بِالِاخْتِبَاءِ! فَلَا تَرْتَعْ لَذَلِكَ يَا بَطْرُس، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَقَعَ أَبْصَارُهُمْ عَلَيَّ.

بطرس: الْبَثُّ مَكَانَكَ يَا صَاحِبَ، وَلَا يَقْلَقَنَّ بَالُكَ، فَإِنِّي أَثْبِتُ لَكَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ إِلَيَّ وَحْدِي، وَلَنْ يَغْنِيَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ شَيْءٌ، قَرَّ عَيْنًا — يَا ميكائيل — فَإِنَّهُمْ رِفَاقِي، وَلَنْ يَمَسَّكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسُوءٍ.

ميكائيل: لَكَ مَا تُرِيدُ يَا أَخِي ... وَلَكِنْ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الرِّفَاقِ شَدِيدُ الشَّبهِ بِذَلِكَ الضَّابِطِ الْقَدِيمِ، الَّذِي فَرَرْتُ مِنْ فِرْقَتِهِ؟

(يدخل الضابط.)

الضابط: لَقَدْ جِئْتُ بِرِسَالَةٍ خَطِيرَةٍ مِنْ «بَطْرُسْ بَرَج»؟ وَهِيَ جَدِيرَةٌ بِعَنَائِي جَلَالَتِكُمْ.
ميكائيل: جَلَالَتُكُمْ! تَرَى مَاذَا يَبْعِنِيهِ، يَا بَطْرُسْ، بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْغَرِيبَةِ؟
الضابط: رُكُوعًا يَا هَذَا، رُكُوعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ... أَلَا تَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَنْ تُخَاطِبُ؟ ... رُكُوعًا
 عَلَى قَدَمَيْكَ إِجْلَالًا لِبَطْرُسَ الْأَكْبَرِ: قَيْصَرِ رُوسِيَا الْعَظِيمِ.
أم ميكائيل (تخر راحة على قدميها): يَا صَاحِبَ الْجَلَالَةِ!! اغْفِرْ لَوَلَدِي، وَاصْفَحْ
 عَنْ وَجِيدِي، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَا يَقُولُ!

ميكائيل: هَذَا سُخْفٌ وَهَرَاءٌ، إِنَّهَا إِحْدَى أَضَاحِكِ بَطْرُسَ يَا أُمَّاهُ، هَا! هَا! هَا! سَجِّلْ
 هَذِهِ الْفُكَاهَةَ يَا بَطْرُسْ؛ فَإِنَّهَا غَايَةٌ فِي الظَّرْفِ!
الضابط: تَنَبَّهْ أَيُّهَا الشَّرِيرُ الْجَرِيءُ ... دَعْنِي أَتَبَيَّنَ مَلَامَحَكَ بِدِقَّةٍ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ
 — فِيمَا أَظُنُّ — قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، الْآنَ عَرَفْتُكَ أَيُّهَا الْهَارِبُ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ، هَلُمُّوا فَاقْبِضُوا عَلَيْهِ
 أَيُّهَا الْجُنْدُ!

ميكائيل (تعلوه أمارات اليأس): رَبَّاهُ! أَيُّ مُفَاجَأَةٍ هَذِهِ! لَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ فِيَّ، وَتَمَّ
 هَلَاكِي، فَارْحَمْنِي يَا إِلَهِي! آه ... بَطْرُسْ! النُّجْدَةُ يَا بَطْرُسْ! أَلَا تَنْقُذُ رَفِيقَكَ الْقَدِيمَ؟ مَا
 بَالُكَ مَشْغُولًا بِالْقِرَاءَةِ عَنْ صَدِيقِكَ التَّاعِسِ الْمُسْكِينِ!
أم ميكائيل (تلوح بيديها حزناً): آه! رُحْمَاكَ أَيُّهَا الضَّابِطُ الْكَرِيمُ! أَبْقِ لِي حَيَاةَ
 وَلَدِي الْمُسْكِينِ!

الضابط: كَلَّا، كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُحَاكَمَتِهِ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ،
 لِتَأْمُرَ بِقَتْلِهِ رَمِيًّا بِالرِّصَاصِ!

بطرس (يحول عينه عن قراءة الرسالة، ويلتفت إلى الحاضرين فجأة): أَطْلُقْ سَرَاحَهُ
 أَيُّهَا الضَّابِطُ؛ فَإِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى سَجِينِكَ هَذَا!
الضابط: إِنَّ إِرَادَةَ جَلَالَتِكُمْ مُطَاعَةٌ مُقَدَّسَةٌ، لَا مَرَدَّ لَهَا!

ميكائيل (ينتهي جانباً): إِنَّهُ يَقُولُ لَهُ: «جَلَالَتُكُمْ» مَرَّةً أُخْرَى، فَأَيُّ مَعْنَى لِهَذِهِ
 الْأَحَاجِي وَالْأَلْغَازِ؟ آه! لَقَدْ بَدَأَتْ الْحَقِيقَةُ تَتَجَلَّى أَمَامَ عَيْنَيَّ ... فَقَدْ سَمِعْتُ شَائِعَةً
 مُسْتَفِيزَةً فِي «هُولَنْدَا» — حِينَ غَادَرْتُهَا — تُنَبِّئُ لَنَا أَنَّ قَيْصَرَ الرُّوسِيَا كَانَ يَشْتَغِلُ
 عَامِلًا مَعَنَا لِيَتَعَلَّمَ فَنَّ بِنَاءِ السُّفُنِ! فَهَلْ صَدَقَتْ هَذِهِ الشَّائِعَةُ؟ لَئِنْ صَحَّتْ ظُنُونِي لَيَكُونَنَّ
 رَفِيقِي الْقَدِيمُ هُوَ الْإِمْبَرَاطُورُ الْعَظِيمُ!



بطرس الأكبر يقرأ كتاباً أعطاه إياه ضابط من حرسه قدم عليه به، وميكايل يلوح بيده ليستعطف القيصر، والقيصر مشغول عن ضراسته بقراءة هذا الكتاب، وأم ميكايل مرتمية على قدمي القيصر، تستعطفه ليرحم ولدها.

بطرس: الآن اهتديت إلى سري، وعرفت حقيقة أمري يا ميكايل.
ميكايل: إذن، أعتقد أنك الـ ... (يرتمي ميكايل على أقدام القيصر).
بطرس: لا عليك يا صديقي الحميم! انهض، ولا تخش شيئاً ... انهضي أيتها الأم العجوز، فقد أصبح ولدك البارون «ميكايل» آمناً ناجياً من كل سوء!
ميكايل (مدهوشاً زاهلاً): البارون «ميكايل»!
بطرس: نعم، فإنني في حاجة إليك، وقد أمرت بتعيينك رئيساً لمصنع «بطرسبرج» الذي أنشأته لبناء السفن، وإنني أحتم عليك أن تتأهب للسفر — من فورك — إلى هذه المدينة الجديدة، فلتذهب غداً مع أمك العجوز وخطبك البارونة «كترين» ... صه! ... لست أريد منك شكراً يا صديقي ... إن أعمالاً خطيرة تستدعيني لإنجازها على عجل،

وَلَوْلَاهَا لَحْضَرْتُ عُرْسَكَ بِنَفْسِي ... هَاكَ صُرَّةً مِنَ الْمَالِ، وَسَأَبْعُثُ إِلَيْكَ بِمَرْسُومِ التَّعْيِينَ فِي
وَضَيْفَتِكَ الْجَدِيدَةِ فِي صَبَاحِ الْعَدِّ ...
وَدَاعَا أَيْيَهَا الصَّدِيقُ ...!

ميكائيل: آه ... بَطْرُسُ! بَطْرُسُ! عَفْوًا! عَفْوًا! أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: «جَلَالَتُكُمْ! جَلَالَتُكُمْ!»
آه! مَا أَشَدَّ حَيْرَتِي وَدُهُولِي! فَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَقُولُ؟ وَلَا بِأَيِّ وَسِيلَةٍ أُعَبِّرُ عَنْ شُكْرِي لَهُ،
وَإِخْلَاصِي لِجَلَالَتِهِ؟ ... آه! اغْفِرْ لِي جَهْلِي وَغَبَائِي، وَتَجَاوَزْ عَنْ بِلَاهَتِي وَعَيْي، وَتَفَضَّلْ
بِقَبُولِ شُكْرِي لَكَ يَا صَاحِبَ الْجَلَالَةِ! سَامِحْنِي يَا صَدِيقِي بَطْرُسُ ... آه! مَا أُرَانِي إِلَّا
حَالًا بِلَا شَكٍّ!

بطرس: ها! ها! إلى اللقاء القريب يا رفيقي القديم ... سَأَلْقَاكَ بَعْدَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ...
بَلِّغْ «كَثْرِينَ» تَحِيَّاتِي الْخَالِصَةَ!

(يخرج بطرس.)

ميكائيل (مخاطبًا الضابط في سخرية وابتهاج): خَبَّرْنِي — بِرَبِّكَ أَيْيَهَا الضَّابِطُ
الْعَزِيزُ: مَتَى تَجْتَمِعُ الْمَحْكَمَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ لِمُحَاكَمَتِي؟
الضابط: اغْفِرْ لِي خَطِيئِي، وَتَجَاوَزْ عَنْ إِسَاءَتِي يَا سَيِّدِي الْبَارُونَ الْجَلِيلِ، وَلَا تَنْسَ
أَنْ تَقُولَ عَنِّي كَلِمَةً طَيِّبَةً فِي حَضْرَةِ الْقَيْصَرِ، إِذَا أُتِيحَتْ لَكَ فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ!
ميكائيل: أَيْنَ أَنْتَ يَا كَثْرِينَ! أَيْيَ حُلْمٍ لَذِيذٍ سَأَقْصُصُهُ عَلَيْكَ! لَقَدْ تَمَّتْ سَعَادَتِي،
وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي! وَافْرَحَتَاهُ!

إلمامة

بطرس الأكبر

بطرس الأكبر هو أعظم قياصرة الروس وأول من نهض بروسيا إلى مصاف الدول العظيمة، بعد أن كانت قبل حكمه بمعزل عنها. ورث الملك وسنه عشر سنوات، فأقيمت أخته وصية، ولما بلغت سنه السابعة عشرة، غل يدها عن الحكم وألجأها إلى دير. وولي بنفسه زمام الأمور، وكان فطنًا، قوي الإرادة، كثير الاطلاع على الكتب التاريخية منذ نشأته، وقد تعلم من اللغات: الألمانية واللاتينية والفلمنكية. وخالط الأجانب واستفاد منهم، وعرف البون الشاسع بين أمته المتأخرة وبقية الممالك الغربية التي خطت في الحضارة خطوات واسعة، فبذل وسعه في النهوض بها، وإعدادها للمكان اللائق بها بين دول أوروبا المتحضرة. فأصلح الجيش مستعينًا على ذلك ببعض الضباط الغربيين، ورأى وجوب زيارة الممالك الغربية، واقتباس كل ما يراه نافعا لبلاده من حضارتها، وأدرك أهمية السفن الحربية لروسيا.

فقام بنفسه برحلة إلى ممالك أوروبا ليتعلم صناعة السفن وكل ما يهمه من العلوم والفنون، وترك مكانه لأحد الأشراف، ويمم هولندا متتكرًا في زي العمال. واشتغل في مصنع بناء السفن بهولندا كعامل بسيط، وكان يتناول أجره كل أسبوع كبقية الصناع الآخرين، ويعيش بينهم كما يعيشون، ويقطن كوخًا صغيرًا كما يقطنون،

ويهيئ طعامه بيده كل يوم كما يفعلون، وكان يناديه زملاؤه باسم: المعلم البطرسي ميخائيلوف.

وكان مثال النشاط والدعوب، فادخر من أجره ثمنًا لحذاء اشتراه لنفسه، وكان كثيرًا ما يفخر به.

ولا يزال في مصنع بطرسبرج إلى اليوم قضيب حديدي من صنع يده.
وزار لندن، ثم ذهب إلى قيينا؛ حيث تعلم فنون الحرب، ولما رجع إلى بلاده أخذ في تشييد القلاع، وتنظيم المدن، وترتيب الجيش، وأسس مدينة بطرسبرج على أحسن طراز، وأخذ يناصر كل مشروع تلوح له فيه مصلحة بلاده.

وكانت إرادته الحديدية وبطشه أكبر معين له على تنفيذ مآربه، فقد قتل كل مناوئ للإصلاح بقسوة، وعاملهم بقلب لا تعرف الرحمة طريقًا إليه، واتخذ في معاقبتهم — من طريق التعذيب والنفي إلى سيريا — وسيلة لنيل أغراضه. ولما انضم ابنه «ألكسيس» نفسه إلى الحزب المناوئ للإصلاح ورأى بطرس منه الجمود على القديم، والانتصار له، والتبرم بالنظم الجديدة، زج به في السجن وقتله.

وكان قد بعث إليه برسالة قبل محاكمته يقول فيها تلك الكلمة الجليلة:

إذا كنت لا أضن ببذل حياتي في سبيل خير بلادي وسعادة شعبي، فكيف أستبقي حياتك؟

ولئن عدت قسوته نقصًا في أخلاقه، لقد حمدت روسيا مغبتها، وكان لها أحسن الأثر فيها.

ولم يكن في الإمكان تغيير النظم البالية القديمة، وإدخال الإصلاح في روسيا، وصبغها بالصبغة الأوربية إلا بطريق القسوة الشديدة والسلطة المطلقة، اللتين لجأ إليهما بطرس. وإليك ما قاله الكاتب الفرنسي المبدع «فولتير» في وصفه:

إن عبقرية بطرس الجبارة التي وقف في سبيل إظهارها التعليم الهمجى الذي تعلمه، وإن لم يستطع محققها — قد ظهرت فجأة تقريبًا؛ فقد صمم على أن يكون رجلًا، وأن يهيمن على الناس، وعلى أن يخلق أمة جديدة.

ولقد نزل كثير من الأمراء عن تيجانهم من قبله، بسبب كراهيتهم لأعباء الملك وتكاليفه، ولكن لم ينزل واحد منهم عن ملكه، ليتعلم كيف يحسن الحكم!

ذلك هو ما فعله «بطرس الأكبر»، غادر روسيا عام «١٦٩٨» ولم يكن قد حكم بعد إلا عامين، وذهب إلى هولندا متنكرًا تحت اسم من أسماء العامة، ووصل إلى أمستردام، وقيد اسمه بقائمة النجارين بديوان البحرية، وهناك أخذ يعمل في المصنع كبقية النجارين.

وفي أثناء عمله تعلم من فروع الرياضة ما قد ينفع أميرًا مثله، كفنون التحصينات والملاحاة، وأخذ الرسوم، وقد فحص كل آلات المصانع، ولم يند عن ملاحظاته شيء.

ومن ثم ذهب إلى إنجلترا، حيث تزود من فن بناء السفن وتكمل فيه، ثم عاد ثانية فمر بهولندا، واهتم برؤية كل ما يعود على بلاده بالنفع، وعاد أخيرًا إلى روسيا بعد عامين، قضاهما في السياحة والأعمال التي لم يتواضع إليها رجل غيره، وأحضر معه إلى بلاده جميع الحرف الأوربية.

هذه هي صفحة موجزة من تاريخ «بطرس الأكبر» الملك العظيم، وهي التي تهمنا الآن.

ونحن نجتزئ بها عن صفحته الثانية الملأى بحروبه الكثيرة، التي كانت سببًا في تتميم نهضة روسيا الحققة.

وقد رأى القارئ في هذه القصة صورة موجزة لبطرس الأكبر وهو يشتغل في مصنع بناء السفن بهولندا الذي أسلفنا ذكره، وإنما أثر ذلك لكي يحتذيه جميع أبناء الشعب، فلا يأنف واحد منهم أن يبدأ حياته بالاشتغال في المهن المختلفة؛ مهما تكن حقارتها.